

النفس والله في فلسفة أفلاطون

بقلم الاستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

النفس

(أ) إن فكرة النفس ماثلة في جميع مؤلفات أفلاطون ، وقد رأينا أن نظرية المثل تتضمن القول بالنفس موجودة قبل اتصالها بالبدن ، من حيث إن هذه المثل ليست متحققة في التجربة ولا مكتسبة بالحواس ، فلا بد من قوة روحية تعقلها ، أو بالأحرى تذكرها ، بعد أن عقلتها في عالم يعاثلها . ورأينا في (ثيماوس) والتوانين ، أن المادة لا تتحرك بذاتها ؛ فلا بد لتعليل الحركة من الرجوع إلى مبدأ غير مادي يتحرك بذاته ويحرك غيره ؛ وأن الجوهر المنقسم لا يعقل ، فلا بد من وضع العقل في جوهر بسيط هو النفس ؛ أضف إلى ذلك الرد على المذهب المادي القائل في (فيدون) : إن النفس توافق العناصر المولدة للبدن بحيث لا يكون لها وجود ذاتي بل ، تكون كالنغم بالإضافة إلى الآلة والأوتار (85c-86) بأن التوافق والنغم نتيجة ، والنتيجة لا تبين المقدمات ؛ ولكن النفس تدبر البدن وتتحكم في الأعضاء ، بل تقاوم البدن بالإرادة متى كانت حكيمة ، ولم يكن ذلك ليتأتى لو كانت النفس نتيجة تناسق البدن ومبائمه فليست نفما ، ولكنه الموسيقى الخفية الذي يحدث النغم (92c-95a) ؛ وعلى ذلك فالنفس حقيقة لا ريب فيها يدل على وجودها تذكر المثل والتعقل الخالص وحركة البدن وتديره بمقتضى الحكمة .

(ب) على أن رأيه في ماهية النفس وعلاقتها بالبدن لا يخلو من التردد والغموض . ففي المحاورة الواحدة « فيدون » يتحدث النفس تارة بأنها فكر خالص ، وطورا بأنها مبدأ حياة وحركة للجسم ، دون أن يبين ارتباط هاتين الخاصيتين ولا أيتهما الأساسية . وفي المقالة الرابعة من « الجمهورية » يجعل للنفس ثلاث قوى : العاقلة والغضبية والشهوية ، ثم يقول في « ثيماوس » بنفوس ثلاث : الواحدة إلهية خالدة والآخران طبيعيتان فانيتان ، ويعين لكل منها حلا في البدن . وبينما يشبه النفس في « فيدر » بمركبة مجنحة ، الخوذي فيها العقل ، والجواريات الإرادة والشهوة ، ويرى أنه قد يحدث في الحياة السعيدة التي تقضيها النفس مع الالهة

• بدأنا بنشر هذه السلسلة ابتداء من الجزء الثاني من السنة الثانية لجهة « المعرفة »

أن الخوذي لا يحسن القيادة ، أو أن يعصاه الجوادان ، وخاصة الجواد الجوح بالطبع وهو الشهوة ، فتهبط النفس من مقرها الأعلى - إذا بكلامه في « ثياوس » يشعر أن الغضبية والشهوية صنعهما الآلهة للحياة الأرضية والوظائف البدنية .

كذلك الحال في علاقة النفس بالبدن ، فتارة يعتبرها متبايزين تمام التمايز ، فيقول : إن الإنسان النفس ، وإن البدن آلة ، وطوراً يضع بينهما علاقة وثيقة ، فيذهب إلى أن البدن يشغلها عن فعلها الذاتي - وهو الفكر - ويجلب لها الهم بحاجاته ولذاته وآلامه ، وأن الموت خلاص لها ، وأن مهمة الفيلسوف العمل على النجاة من البدن جهد المستطاع ورياضة النفس على الموت (Phaedon 64-66) دون أن يبين ماهية هذا الاتصال وإمكان هذا التفاعل بين المادة والروح تفاعلاً يذهب - في ثياوس مثلاً - إلى حد علاج النفس بالبدن والبدن بالنفس ، وقيام الشعور والادراك في النفس عند تأثر البدن بالحركة المادية على ما بين هذه الحركة والظاهرة النفسية من تباين .

(ج) وشغل أفلاطون شغلاً كبيراً بمسألة الخلود ، ذكرها مراراً قبل أن ينحصر لها « فيدون » وكان يحس إحساساً قوياً بخطورتها ووجوب بحثها من جهة ، وبضعف العقل بازائها من جهة أخرى ، فقال هذه العبارة الجامعة : إن العلم بتحقيقة مثل هذه الأمور ممنوع أو صير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الجبن المدول عن البحث والياس قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى والمخاطرة عليه لاجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب . (Phaedon 85 ed) ؛ وهو يسوق أدلة ثلاثة : الأول أسهلها تناولاً ، لأنه قائم على العقيدة القويمة وهي : (أرفية ومصرية وفيناغورية) بتداول الأجيال البشرية ، فإذا كان صحيحاً أن النفس التي تولد في هذه الدنيا تأتي من عالم آخر ذهبت إليه بعد الوفاة ، وأن الأحياء يبعثون من الأموات ، ينتج لنا أن النفس لا تموت بموت البدن . ثم يعمم الدليل ويقول : ونحن إذا نظرنا في التنوير بالاحمال - وهو قانون العالم المحسوس - وجدناه تبادل دائراً بين الازدادات يتولد الأكبر من الأصغر ، والأحسن من الأسوأ وبالعكس ، فتصح لدينا العقيدة القديمة بأن الحياة تبعث من الموت ، ولو لم يكن الأمر كذلك لانتهد الأشياء إلى الفناء ؛ وإذن فقد كانت النفس قبل الولادة وستبقى بعد الموت (70c-72e) . ويتأيد هذا الدليل من ناحية أخرى ، ذلك أن هناك ضدين هما العلم والجهل ، وبعثاً من نوع آخر هو تذكر المثل ، فإذا كانت النفس قد عرفت المثل قبل هبوطها إلى الأرض ، فليس ما يمنع بقاءها بعد الموت (72e-77d) .

والدليل الثاني يدور على تعقل المثل ، فإن هذه بسيطة وبالتالي ثابتة ، إذ أن المركب هو

التي ينحل إلى بساطته ويتحول ، أما البسيط فلا يجوز عليه تحول أو انحلال ؛ فلا بد أن تكون النفس التي تمقل المثل شبيهة بها على حسب القول القديم : الشبيه يدرك الشبيه . وعلى ذلك فالنفس بسيطة ثابتة (78b-84b) .

ولكن أفلاطون يقر أن كل ما يلزم من الدليل الأول بفروعه الثلاثة هو أن النفس كانت قبل الولادة ، ومن الثاني أنها شبيهة بالمثل ؛ فن هذين الوجهين لا تتناقى خصائصها مع البقاء ، أما البقاء نفسه فلما يتم البرهان عليه ، إذ من يدرينا أن النفس لا تتنى بتلاشي قوتها بعد أن تكون تقصت أجساماً عدة ؟ (86c-88b) . هنا يلجأ أفلاطون إلى نظريته في المثل والمشاركة ، ويقدم دليلاً ثالثاً ، فيقول : لما كانت النفس حياة فهي مشاركة في الحياة بالذات ولا تقبل الماهية ما هو ضدّها إلا وتلاشي كما يتلاشي البارد إذا قبل الحار ، ولكن النفس لا تقبل الموت ، فإنها منافية له بالطبع من حيث إنها مشاركة في الحياة بالذات البسيطة الباقية . فالنفس لا تتلاشي (105c-107) .

غير أن شعوره المزدوج بعظم المسألة وبالضعف البشري لا يفارقه ، فنراه يعلن أن هذا الشعور يضطره لبعض التحفظ بازاء هذه الأدلة على وجاعتها عنده ؛ بل يذهب إلى أن مقدماتها أنفسها مفتقرة لبحث أوكد (107a) ؛ وهو يعود للموضوع في « فيدر » (245c-246) ثم في « القوانين » (893-896) ، ويعرض دليلاً جديداً قائماً على ما أسلفنا في تقسيم الحركة إلى ذاتية وقهرية ، وتعريفه النفس بأنها ما يتحرك بذاته ، ويتحرك المادة فيقول من ناحية : إن ما يتحرك بذاته فهو خالد ، من حيث إنه لا يوجد فيه ولا في غيره ما يقف حركته ؛ ومن ناحية أخرى : إذا كانت النفوس علة الحركات الطبيعية فهي باقية ، إذ لو كانت تقتضي لانتهات الطبيعة أيضاً ، ولسنا ندرى مقدار ثقته بهذا الدليل ، وإذا رحنا نقوم أدلته ونمتحن مقدماتها — كما يريد — وجدنا الأول يسلم بالدور تسلياً ، فلا يتبادر عندنا حتى يقع في غلط هو أشبه بالمغالطة حين يدعى أن الضد يخرج من الضد ، وكلامه يدل فقط على أن الضد لا ينقلب إلى ضده حتى يتلاشي أولاً كالخار والبارد ، أو يكسب أو يخسر شيئاً كالصغير يصير كبيراً وبالعكس . أما التذكر فليس التفسير الوحيد لتمقل المثل ، فقد نجدها من الجزئيات على مذهب أرسطو . وأما إن النفس حياة وحركة ، فلا يدل قطعاً على بقاء النفوس الانسانية إلا إذا صح أنها كل النفوس ، وأن الحركة والحياة لها بذاتها ، وأن مشاركتها في الحياة بالذات لا يجوز أن تكون مؤقتة كسائر المشاركات . يبقى تمقل المثل ، وهو الدليل الأقوى فيما نرى ، فانه ينظر للنفس في ذاتها لا بالإضافة للبدن والطبيعة ، ويراه روحية تدرك الروحانيات وتتوق إليها ، وتعلم ما بينها وبين المادة من تغاير ، وأن حياتها الخاصة لا تتحقق إلا بخلوصها من المادة في عالم يماثلها ؛ وهذه الفكرة منبثة في محاوره « فيدون » من أولها إلى آخرها .

فهما يتشكك أفلاطون في قيمة أدلته ، فإن الشك لا يتناول العقيدة نفسها ، وكانت ثابتة عنده من مذهبه بأكمله ، وبما كان يملأ قلبه من إرادة الخير ، إذ يمتنع على من اقتنع بالروح والعقل والفضيلة أن يصدق بفناء النفس وغلبة المادة وبطلان الحياة الانسانية ، ولو لم يهتد إلى البرهان ، بل إن هذا الرجاء وهذا الشوق إلى السماء ، وهذا الأسف الرائع - لأن وحيًا إلهيًا لم ينزل (85d) فيحيل الرجاء الجميل يقينًا ومبدأ - كل أولئك لا يحصل في مليه البرهان المبين : هل كان الانسان يطلب الخلود لو لم يكن خالداً ؟

أما مصير النفس بعد الموت فله فيه قصص طويلة ترجع كلها إلى أن الأخيار يلحقون بالآلهة وينعمون بمادة مقيمة ، والأشرار يلقون قصاصهم في الجحيم في بعض المواضع ، ويتقصون أجساداً حيوانية في مواضع أخرى ، إلى أن يتطهروا من آثامهم ويعودوا أخياراً . وهو في جميع تصوراته يصدر عن وجوب التكافؤ بين العمل والجزاء وإيمانه بالعدالة الالهية .

الله

(١) إن كتب أفلاطون ملأى بذكر الله والالوهية والآلهة ، وإن لفظ الله مشترك عنده بلا جدال ، وقد مر بنا ما يكفي للدلالة على ذلك ؛ ولكننا نصرف النظر مؤقتاً عن هذا الشرك الظاهر ، ونقول إننا نجد عنده جميع عناصر التوحيد واضحة قوية ، فقد رأيناه يضع المبدأ العام : « كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة » ، ويبرهن على وجود الصانع بالحركة والنظام ؛ فن الناحية الأولى يقسم العمل إلى ذاتية وقسرية ، ويضيف الذاتية للنفس ، ويرتب النفوس حتى يبلغ إلى تس عليا يسميها الله ؛ ومن الناحية الثانية يقرر أن النظام من العقل ، وأن العالم منظم فينتهي إلى أن الصانع تس عاقلة منعمة بالخير ؛ وهو في الواقع لا يفهم العلة الحقة إلا على أنها عاقلة ، من حيث إن شيئاً لا يفعل إلا إذا قصد (أو قصد به) إلى غاية ، وإن الغاية لا تتمثل إلا في العقل ، وعند هذه الصخرة يتحطم كل مذهب آلى .

ورأيناه يضع المثل ، لأنه وجد الحسوسات تتفاوت في صفاتها ، فدلله هذا التفاوت على أن الصفات ليست لها بالذات ، بل هي حاصلة في كل منها بالمشاركة فيما هو بالذات . وخص بالذكر مثال الجمال في « المأدبة » ، ومثال الخير في المقالة السادسة من « الجمهورية » ، فقال عن الأول : إنه علة الجمال المنفرد في الأشياء ، والمقصد الاسمي للارادة في نزوعها إلى المطلق ، والغاية القصوى للعقل في « استدلاله » لا يوصف ، أى لا يضاف له ، أى محمول ، لأنه غير مشارك في شيء ، ولكن هو هو الاتحاد به تمام الخلود ونهاية الارب ؛ وقال عن الثاني : « في آخر حدود العالم المعقول يوجد مثال الخير ، هذا المثال الذي لا يدرك إلا بصعوبة ، ولكننا لا ندركه إلا ونوقن أنه علة كل ما هو جميل وخير . هو الذي ينشر ضوء الحق على موضوعات العلوم ، ويعطي النفس قوة الادراك ، فهو مبدأ العلم والحق يفوقهما جلالاً ومهما

يكن لها من جبال . هو أسمى موضوع لنظر الفيلسوف ، والغاية من « الاستدلال » تعقله ، وإن جباله ليعجز كل بيان لا يوصف إلا سلباً ، ولا يعين إيجاباً إلا بنوع من التخمين الناقص . وكما أن الشمس تجعل المرئيات مرئية وتمطيها الكون والنمو والغذاء دون أن تكون هي شيئاً من ذلك ، فإن المعقولات تستمد معقوليتها من الخير ، بل وجودها وماهيتها ، ولو أن الخير نفسه ليس ماهية ، وإنما هو شيء أسمى من الماهية بما لا يقاس كرامة وقدرة . اعلم أن الخير والشمس ملكان : الواحد على العالم المعقول ، والآخر على العالم المحسوس . ومقصد أفلاطون واضح هو أن التفسير النهائي للشيء ، هو أن هذا الشيء خير أو مشارك في الخير ، أي أن العلة الغائية هي العلة الحقة المطلقة .

(ب) وفي المقالة العاشرة من « القوانين » يذهب إلى أنه يمكن تقرير بضعة حقائق عن الله و(الآلهة) ، هي وجوده وعنايته وعدالته ، وأن إنكارها جملة أو فرادى جريمة ضد الدولة يجب أن يعاقب عليها القضاء ، لأن هذا الإنكار يؤدي مباشرة إلى فساد السيرة ، فهو إخلال بالنظام الاجتماعي ، وقد ينكر الإنسان الله بشاقاً ، وقد يؤمن به ثم ينكر عنايته ، وقد يؤمن به ويعنايته ، ثم يتوهم أنه يستطيع شراء رضائه بالتقدمات والقرابين دون التوبة والنية الصالحة . والبدعة الثالثة أشنع من الثانية ، لأن الإهانة فيها أعظم ، والثانية أشنع من الأولى لنفس السبب ، فإن إنكار الله أهون من إنكار عنايته مع الإيمان به ، وإنكار العناية أهون من تصوير الله مرتشياً . والأولى والثانية جديرتان بالمراجعة ، أما الأخيرة فأحق بالسخط منها بالتفنيد .

هنا يبين أفلاطون أن للاتحاد مصدرين كبيرين : الواحد دعوى الطبيعيين أن العالم وجزئياته بما فيها النفوس تحتاج حركة العناصر المادية غير العاقلة ، والآخر دعوى السوفسطائيين أن المبادئ الخلقية وضعية نسبية ، وأن ليس هناك خير وشر بالذات ، ثم يعضي في البرهنة على وجود الله بما سبق بيانه ، وينتقل إلى إنكار العناية الإلهية فيقول : إن دليله عند أصحابه نجاح الأشرار ، ولكنهم واهمون ، فإن الآلهة إن كانوا لا يعنون بسيرتنا ، فذلك إما لأنهم عاجزون عن ضبط الأشياء ، وهذا محال ، وإما لأن السيرة الإنسانية أتمه عندهم من أن تستحق عنايتهم ، وهذا محال كذلك ، لأن كل صانع يعلم أن للجزئيات شأنها في المجموع فيعني بها . فهل يكون الله أفل علماً من الإنسان ؟ إن ساعة الأشرار آتية لا محالة . أما الشر الطبيعي فما هو في ذاته إلا نقص في الوجود ، أو خير أقل ، هو ضد يتميز به الخير كما يتميز الصدق بالكذب لم يرد الله ، بل سمح به فداءً للخير الفائض على العالم ، ويستحيل أن يكون العالم المصنوع خيراً محضاً فيشابه نموذج الدائم ، هو إذن ناقص ولكنه أحسن عالم ممكن . وعناية الله تشمل الكلليات والجزئيات أيضاً بالقدر الذي يتفق مع الكلليات ، ونحن نرى الطيب

يراعى الشكل قبل الجزء ، والفنان يدير أفداله على مقتضى الغاية ، ويرى إلى أعظم كمال ممكن للشكل ، فيصنع الجزء لأجل الشكل لا الشكل لأجل الجزء ؛ كذلك حال الصانع الأكبر ، فإن كان الإنسان يتفكر ، فلائنه يتجهل أن خيره الخامس يتعلق به وبالشكل معاً على مقتضى قوانين الشكل .

(ج) والآن ماذا عسى أن تكون قيمة ما يبدیه النقاد من استدراك واعتراض على مذهب أفلاطون في الله ؟ فقد قيل إن كل شيء عنده إله أو إلهي : المثل ، ومنال الخير ، ومنال الجمال ، والعقل ، والنفس ، والصانع ، والعالم ، والكواكب ، وآلهة الأواب ، والجن (وهم وسط وواسطة بين الآلهة والبشر ، تصفون بالحكمة والتأثير) ، فأين الله بين هؤلاء الآلهة وما النموذج « الحى بالذات » الحاوى جميع المثل ؟ وما العلاقة بينه وبين الصانع ، ومنال الجمال ومنال الخير ؟ ولم يقرب أفلاطون بينهم ، بل تركهم متفرقين ، وأرسل الكلام على الصانع قصة رمزية تحيز لقائل أن يقول : إن الصانع يمثل ما للعقل من قدرة وعلية في المادة وليس شخصاً قائماً بذاته .

نحبب أنفسنا إذا أهملنا بعض النصوص الضعيفة العارضة واعتبرنا روح المذهب ومبادئه الأساسية لوجدنا أن توحيد الصانع والنموذج ، والتأثير والجمال ، وسائر المثل في الله لا يكلف كبير عناء ، فهو الصانع من حيث هو علة فاعلية ، وهو النموذج الحى من حيث هو علة نموذجية يصنع على منال معتولاته ، وهو : الجمال والخير ، من حيث هو علة غائية تحب وتطلب ، فإن الصانع موصوف بالتأثير ، والتأثير موصوف بأنه مصدر المثل . أما باقى الآلهة (وأفلاطون لا يذكر آلهة المينولوجيا إلا تسامحاً وبشيء من التهمك ظاهراً) ، فتبعية لهم لا يتطرق إليها الشك : إنهم مصنوعون ، وإن خلودهم منحة من الله ، فهم آلهة باشتراك الاسم فقط ؛ ولقد أتى هذا الاشتراك من اعتماد أفلاطون أن « مبدأ التدبير إلهي » ، لحينا وجد التدبير والنظام وجد العقل ، والألوهية متفاوتة بتفاوت الوجود ، وعلى ذلك فالآلهة الصور أو القوى التي يبدو فيها العقل الأول والآله الحى .

يوسف كرم

واجبك ... هل أدبته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب ...

أيها الشباب المنقف !

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التي يسطع بأعصابها الشاقة أحد مواطنكم ؛ فليكن تمضيدهم إياه مشجعاً له ولنيره ... على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه